

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة من منظور مخالف-أبو القاسم حاج حمد أنموذجاً-

د/ زبيدة الطيب: أستاذ محاضر أ

كلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المؤتمر الدولي حول: آفاق الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

تنظيم: مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة-الأغواط الجزائر

بتاريخ: 02-03 ديسمبر 2018

الملخص

تبرز المسوغات عند القائلين بالإعجاز العلمي موضوعية؛ بالنظر إلى السياقات التي صاحبت ميلاده وانتشاره، وبالنظر، أيضاً، إلى الأهداف المتوخاة وهي إثبات أركان العقيدة، والدفاع عنها ضد المناوئين من مختلف التيارات الإلحادية واللا دينية والمذاهب الفلسفية العنيفة والمادية ومن ثمة الإسهام في نصرته الإسلام وقيمته وحضارته، واستعادة مستوى معين من الوعي والثقة بالذات.

غير أن هذه النظرة لم تعد محل ترحيب من قبل العديد من الباحثين والمفكرين من داخل الفضاء الفكري الإسلامي، ومنهم المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد، من منطلق أن هذه النظرة تتضمن إشكالات حضارية ومعرفية خطيرة؛ لعل أبرزها الإقرار بمركزية الحضارة الغربية، وإشكالية الأنا المهزوم الذي لا يتحرك إلا في نطاقها. وهي تتضمن إشكالات أخرى يتجاوز كشف الإمكانيات المعرفية والتحويلية للنص القرآني من الداخل، وفي المقابل إسقاط الكثير من نتائج المنجزات العلمية الغير نهائية على النص القرآني.

summary

The justifications for those who claim scientific miracles are objective. Considering the contexts that accompanied its birth and spread, and considering, the aspired goals, which are proving the pillars of the faith, and defending it against opponents from various atheistic and irreligious currents and absurd and materialistic philosophical doctrines, and thus contributing to the victory of Islam, its values and civilization, and restoring a certain level of awareness and self-confidence.

.However, this view is no longer welcomed by many researchers and thinkers from within the Islamic intellectual space, including the Sudanese thinker Muhammad Abu al-Qasim Haj Hamad, on the grounds that this view includes serious cultural and cognitive problems. Perhaps the most prominent of these is the acknowledgment of the centrality of Western civilization, and the problem of the defeated ego that only moves within its scope. It includes another problem that goes beyond revealing the epistemological and transformative capabilities of the Qur'anic text from within, and in return projecting many of the results of the non-final scientific achievements on the Qur'anic text.

مقدمة:

تبرز المسوغات عند القائلين بالإعجاز العلمي موضوعية؛ بالنظر إلى السياقات التي صاحبت ميلاده وانتشاره، وبالنظر، أيضاً، إلى الأهداف المتوخاة وهي إثبات أركان العقيدة، والدفاع عنها ضد المناوئين من مختلف التيارات الإلحادية واللا دينية والمذاهب الفلسفية العنثية والمادية ومن ثمة الإسهام في نصرته الإسلام وقيمه وحضارته، واستعادة مستوى معين من الوعي والثقة بالذات.

غير أن هذه النظرة لم تعد محل ترحيب من قبل العديد من الباحثين والمفكرين من داخل الفضاء الفكري الإسلامي، ومنهم المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد، من منطلق أن هذه النظرة تتضمن إشكالات حضارية ومعرفية خطيرة؛ لعل أبرزها الإقرار بمركزية الحضارة الغربية، وإشكالية الأنا المهزوم الذي لا يتحرك إلا في نطاقها. وهي تتضمن إشكالا آخر يتجاوز كشف الإمكانيات المعرفية والتحويلية للنص القرآني من الداخل، وفي المقابل إسقاط الكثير من نتائج المنجزات العلمية الغير نهائية على النص القرآني.

إن ما سبق عرضه؛ يجعل مقارنة النص القرآني ونصوص السنة النبوية الشريفة بالاعتماد على منجزات العلوم الكونية والإنسانية، من منظور أبي القاسم حاج حمد، تعبيراً عن أزمة منهجية حادة في الفكر الإسلامي المعاصر؛ كونها تتجاوز المنطق الداخلي والذاتي في فهم القرآن الكريم وتفسيره، وتتطلق من روح انهزامية لا يعول عليها في نصرته العقيدة الإسلامية أو صناعة مستوى ما من الوعي الحضاري لعموم المسلمين اليوم. وهو ما يبرز للباحثة رؤية متميزة إزاء موضوع الإعجاز العلمي، ومنه تولدت لديها إشكالية هذه الورقة البحثية؛ وهي كيف يتأسس القول بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة عند أبي القاسم حاج حمد؟

تلك هي الإشكالية التي سنحاول معالجتها من خلال العناصر التالية:

أولاً- تعريف الإعجاز العلمي في الفكر الإسلامي:

عرّف المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في إسلام آباد 1987 الإعجاز العلمي بأنه " ...تأكيد الكشوف العلمية الحديثة الثابتة، والمستقرة للحقائق الواردة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، بأدلة تفيد القطع واليقين باتفاق المتخصصين، وتهدف دراسته وإجراء البحوث فيه إلى إثبات صدق النبي فيما جاء به من الوحي بالنسبة لغير المؤمنين، وتزيد الإيمان وتقوي اليقين في قلوب المؤمنين¹ " أي أن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتعبير آخر هو التأسيس الإسلامي للاكتشافات العلمية بغرض إثبات صدق الوحي والحفاظ على إيمان المؤمنين وتعميق علاقتهم بعقيدتهم ودينهم.

والناظر في نشأة التفسير العلمي للقرآن الكريم والسنة يلحظ أن ثمة عناصر شكلت ما يمكن اعتباره ضرورات فكرية ومنهجية أسهمت في نشأته وتحكمت في انتشاره وتطوره؛ فقد شكل القرن العشرين بداية الأبحاث والطروحات التي توجهت نحو تفسير بعض آيات القرآن الكريم اعتماداً على معطيات علمية رشحت في الغرب، وكان ذلك تحت ضغط تيارات وأفكار بدأت تشكك في الميراث الحضاري الإسلامي الذي تشكل العقيدة الإسلامي والدين الإسلامي أساسه ومنطلقه وباتت تهدد الوجود الروحي والحضاري للمسلمين عن طريق إحداث قطيعة بينهم وبين القرآن الكريم.

ويشكل الفكر الاستشراقي أبرز من تولى مهمة التشكيك في صوابية وحقانية القرآن الكريم في تشكيل وعي المسلمين عن طريق ابتداع فروق وتناقضات بين الإسلام والعلم والقول بأن القرآن هو أكبر معوقات نهضة المسلمين ومسيرتهم نحو التطور والحداثة، ولعل مناظرة الشيخ محمد عبده مع المستشرق أرنت رينان تكشف جانباً من الضغط الذي كانت تعيشه الطبقة العلمانية بإزاء ما تعرض له القرآن الكريم من شبهات وشكوك خاصة مناقضته للعلم واحتقاره العلم والعلماء وحاجة العلماء إلى إزالة شبهات التناقض والقضاء على التشكيك في إلهية القرآن الكريم.

وقد تمكنت تلك الموجة الاستشراقية من إيجاد تيار فكري وشخصيات من المسلمين ممن تبنا الأفكار الاستشراقية وصاروا يشكلون ظهيرا للمستشرقين في إثارة الشبهات والشكوك من الداخل ومن موقع الدارس والملم بمسائل التراث والمسائل ذات العلاقة.

ثمة عنصر آخر ينبغي مراعاته في فهم توجه الفكر الإسلامي في تلك الفترة إلى التفسير العلمي؛ ألا وهو عنصر الإطلاق والقدرة الاستيعابية الكبيرة التي تميز القرآن الكريم لكل الأنساق الثقافية والحضارية السابقة واللاحقة، وهو عنصر قوي يستمد قوته من قوله تعالى: " ما فرطنا في الكتاب من شيء."

¹ / علي بن نايف الشحود، الموسوعة الشاملة، موسوعة البحوث والمقالات،
<http://islamport.com/w/amm/Web/3779/12589.htm>

إن تلك الأوضاع خلقت ما يمكن اعتباره ضرورات أدت إلى أن يتوجه أهل العلم من رواد النهضة في بداية القرن العشرين نحو تفسير القرآن الكريم بالاعتماد على المعطيات العلمية؛ خاصة وأنهم وجدوا في التراث الإسلامي ما يعضد توجههم كما هو الحال عند الرازي في تفسيره الكبير، ولذلك طفق الشيخ محمد عبده في تفسير الطير الأبابل بالجراثيم والميكروبات وغير ذلك...

من هنا يمكن أن نفهم أهداف التفسير العلمي، والتي يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- محاولة جسر الهوة بين الإسلام والعلم وإثبات موافقة القرآن الكريم للعلم، بل ودعوته الصريحة إليه وإكباره العلم والعلماء، ومن ثمة رد شبهة التناقض التي أثارها وأشاعها المستشرقون.

-بعث ثقة المسلمين بكتابهم ودينهم في وقت الصدمة التي أصابتهم بعد حملة نابليون على مصر واستمرت بعد الحملة الاستعمارية على معظم البلاد الإسلامية والتي لا تزال آثارها إلى اليوم.

-تثبيت العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين؛ فتثبيتها يحتاج إلى عناصر قوية تضاهي العوامل أو العناصر التي عملت على قلعها من النفوس، وقد ثبت أن محاولة اقتلاعها كانت من طريق العلم والاكتشافات العلمية وإكبار التفكير العلمي والعقلاني والتجريبي ونبذ التفكير الأسطوري والخرافي القائم على الدين كما يقولون، ولذلك كان لا بد أن يكون سلاح التثبيت هو نفسه السلاح الذي استعمل في محاولة الاقتلاع.

-الدفاع عن عقيدة الإيمان ضد موجة الإلحاد واللاذينية التي انتشرت في الغرب وأريد لها أن تنتشر في المجتمعات الإسلامية؛ وذلك بعد أن تثبت العقيدة في النفوس.

لقد مهدت تلك التفسيرات العلمية التي باشرها بعض رواد النهضة لنظرية الإعجاز العلمي التي راحت تبحث في التأسيس الشرعي للاكتشافات والإنجازات العلمية من أجل الأهداف والغايات نفسها. ولا شك أن بعض تلك البحوث قد أدت دورها في ظرفها خاصة من جهة تثبيت العقيدة الإسلامية ورد حملات الإلحاد واللاذينية التي صاحبت المد الشيوعي في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضي واكتسحت المجتمعات العربية والإسلامية؛ حيث كان لمؤلف مالك بن نبي في الظاهرة القرآنية وعبد الله دراز في النبأ العظيم ووحيد الدين خان في الإسلام يتحدى وغيرها أثر بين في تصويب عقيدة الكثير من الشباب والنخب الفكرية والثقافية في العالم العربي والإسلامي ورددتهم إلى العقيدة الإسلامية من خلال طرق الإثبات والرد التي انتهجها هؤلاء والتي اعتمدت في أكثرها على المعطى العلمي المكتشف في أوروبا والغرب عموماً؛ بمعنى أن هناك سقف معرفي ومنهجي، وخصائص مرحلية محددة، ووقائع تاريخية تحكمت في المسار العلمي والفكري للمسلمين في ذلك الوقت يجب مراعاتها وأخذها بعين الاعتبار.

وقد تبنت نظرية الإعجاز العلمي العديد من المؤسسات والهيئات العلمية كهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والتي كان مقرها مكة المكرمة كما تبناها ودافع عنها المعهد العالمي للفكر الإسلامي والشخصيات الفكرية والعلمية التي أصبحت علماً عليه مثل

الدكتور زغول النجار وغيره. وعقدت لأجله المؤتمرات والندوات العالمية للتعريف بالسبق الذي يحققه القرآن والسنة في كشف العديد من العلوم والدقائق في كل الفروع العلمية سواء التطبيقية منها أو الإنسانية.

وعلى الرغم مما حققه الإعجاز العلمي في تلك السنوات وفي ظل ظروف موضوعية سبق بيانها؛ إلا أنه قوبل بالرفض من قبل العديد من المفكرين والعلماء وتحت عناوين ومبررات مختلفة؛ فهناك من رفضه بعنوان تنزيه الثابت المقدس من الدوران في العلم المتغير؛ أي على أساس الفرق الواضح بين طبيعة القرآن الكريم المتسمة بالثبات وطبيعة العلم المتسمة بالتغير. ويعزى هذا الرأي إلى شيخ الأزهر محمود شلتوت في كتابه "تفسير القرآن الكريم" الذي يقول: "... إن هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، أولاً: لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف، ثانياً: لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً ينتافي مع الإعجاز ولا يستسيغه الذوق السليم، ثالثاً: لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان."²

وهناك من رفضه لأنه يقوم على تحميل الكلمات معانٍ لم تعرفها وقت نزول الوحي، وتعد عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) من أبرز من تصدى لمناقشة الموضوع وكشف ما تعتبره تلاعباً بالكلمات وتحميلها بمعانٍ مستلة من العلوم التطبيقية لا تطبيقها تلك الألفاظ في أوضاعها الطبيعية ولا تعنيه زمن النزول أو على غير عادة العرب في الكلام الذي على طريقته نزل القرآن الكريم وخاطب الله تعالى به العرب فأعجزهم؛ فنقول: "... وتحدث أحدهم عن الإعجاز البيولوجي في الآية: (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) مبيناً أن العلم كشف أن الأنثى هي التي تنسج البيت وليس الذكر، فترد قائلة: "... إن المبتدئين من طلاب اللغة العربية يعرفون أن العرب أنتوا لفظ العنكبوت والنمل والنحل والدود، وأن القرآن جرى على لسان العرب، ولا علاقة للأمر بإعجاز علمي لم يبينه الرسول للناس."³ وهو بذلك يكون نوعاً من التخدير والتسكين لحالة التراجع الحضاري الذي تعيشه الأمة وليس شرطاً للنهوض وإيقاظ الوعي كما يتوهم البعض.

وهو فوق هذا وذاك منهج مغلوط يقوم على انتظار ما يتم اكتشافه من نظريات علمية في الغرب ليتم البحث عن كلمات أو ألفاظ داخل النص يقومون بتفسيرها أو تأويلها بالعسف حتى تؤدي المعنى الذي يريدون ثم القول بأنه إعجاز علمي، وقد وصفه بعضهم بالتلصص والسرقة.

كما رفضه طيف آخر من المفكرين، بل وسماه "وهم الإعجاز العلمي" كما هو الحال عند خالد منتصر؛ حيث يذهب إلى أن القول بالإعجاز في القرآن الكريم من خلال آيات الخلق مثلاً كما هو الحال في مسألة خلق الإنسان من طين أو غيرها موجود في غير القرآن الكريم؛ أي في التوراة وحتى في أساطير الخلق في حضارات العراق ومصر واليونان فهل

² / يوسف القرضاوي، كيف نفهم القرآن العظيم؟

³ / الإعجاز العلمي في القرآن: ما قصة هذه الفرضية وما مواقف العلماء وخبراء الدين

منها؟ <https://raseef22.com/culture/2017/12/10/>

يعني ذلك سحب القول بالإعجاز على تلك المصادر؟ ومن ثمة عدم تفرد القرآن الكريم بالإعجاز وغياب الهدف أو الغاية من بحث الإعجاز وهو بيان فريدة القرآن الكريم وصوابيته. وحينئذ أين موقع الدفاع عن العقيدة الإسلامية مما يجري إثباته بهذا الخصوص في كل الديانات بل وفي الديانات الوضعية؟⁴

ومع أن تلك المواقف لها من المبررات والعناوين التي تستند إليها ما يمكن اعتباره راجحاً وقويًا ويعكس نظرة استيعابية للموضوع؛ إلا أن رفض حاج حمد وموقفه من الإعجاز العلمي يشكل، برأينا، انعطافة كبيرة في الفكر الإسلامي يجب أن نوليها اهتماماً عن طريق بيانها وتحليلها، وهو ما تسعى إليه هذه الورقة البحثية.

ثانياً- موقف أبي القاسم محمد حاج حمد من مسألة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

1/ التعريف بالمفكر أبي القاسم حاج حمد:

أبو القاسم محمد حاج حمد كاتب ومفكر سوداني. عمل مستشاراً علمياً لـ"المعهد العالمي للفكر الإسلامي" في واشنطن. أسس عام 1982 "مركز الإنماء الثقافي" في أبو ظبي وأقام أول معارض الكتاب العربي المعاصر بالتعاون مع العديد من دور النشر اللبنانية. أسس في قبرص "دار الدينونة" لإعداد موسوعة القرآن المنهجية والمعرفية، ومجلة "الاتجاه" التي تعنى بشؤون الفكر والاستراتيجية في نطاق الوسط العربي والجوار الجغرافي. صدر له عدة مؤلفات: العالمية الإسلامية الثانية - منهجية القرآن المعرفية- الحاكمية- القرآن والمتغيرات الاجتماعية- تشريعات العائلة في الإسلام - جذور المأزق الأصولي- حرية الإنسان في الإسلام.⁵

2/ موقفه من الإعجاز العلمي:

يقوم رفض حاج حمد الإعجاز العلمي في صورته المبنية في الكثير من الكتب والمؤلفات اليوم، على خلفيات معرفية ومنهجية تعكس مشروعه الفكري القائم على كشف إمكانات النص القرآني المعرفية والمنهجية في إحداث نهضة حقيقية في العالم الإسلامي بعيداً عن عقدة النموذج الغربي ومنطلقاته الفلسفية والفكرية؛ التي لا يزال الفكر الإسلامي يدور في فلكها منذ المحاولات النهضوية الأولى في بداية القرن العشرين ولم تسفر إلا على المزيد من العجز والفشل؛ حيث تشكل مسألة الإعجاز العلمي إحدى مظاهر ذلك العجز والفشل بحكم ارتباطها وتعلقها بالنموذج الغربي وتجاوزها لإمكانات النص القرآني التحويلية. ولذلك فإن معالجة الموضوع تنبئ لنا من خلال نقطتين اثنتين تشكل برأبي الركيزة الأساسية في فهم المنظور الخاص والمخالف لحاج حمد لمسألة الإعجاز العلمي.

-/ الإعجاز العلمي = إدراك للذات من خلال الآخر

يتبين موقف حاج حمد من الإعجاز العلمي من النقد الذي يوجهه إلى تعاطي الفكر الإسلامي مع أزمة التخلف التي كشفها منذ الاحتكاك بأوروبا في حملة نابليون أول مرة؛

⁴ / المرجع السابق.

⁵ / مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، <http://www.mominoun.com/auteur/261>

وهو الفكر الذي يعتقد أنه يتحمل المسؤولية الكبيرة في إبقاء الوضع الإسلامي فكراً وثقافة وسياسة واقتصاداً واجتماعاً متعلقاً ومربوطاً بالنموذج الغربي ومن ثمة تكريسه الهيمنة الغربية ومركزية فلسفتها ومفاهيمها من خلال اعتماده فكر المقاربات والمقارنات المتولد تحت ضغط الحضارة الغربية ومنجزاتها في الميادين العلمية والصناعية والتكنولوجية، والتي تعني تكريس الهيمنة الغربية ومركزية فلسفتها ومفاهيمها في حل أزمنا الفكرية والحضارية.

والمراد بفكر المقاربات أنه فكر " ... يتجه إلى تجديد وتفاعل مع المنظومة الغربية، بدرجات متفاوتة، وبمنطق الحدائة ."⁶ أي الذهاب إلى تحليل الظواهر للقول بأن ما بجمع الفكر الإسلامي بالفكر الغربي أكثر مما يفرق، وأن الغرب يكتشف ما عندنا من حقائق. وأما فكر المقارنات هو ذلك الفكر الذي يعتمد المفاضلة والقول بأن ما عندنا أفضل وأن ما كشفه الغرب نحن أسبق في كشفه ومعرفته.

وكلاهما يعبر، برأينا، عن صدمة حضارية أسست لنظرة لا ترى تقدمها أو نهضتها إلا من خلال النموذج الغربي من حيث أنها كشفت تخلفها من خلاله.

وضمن هذا السياق يظهر القول بالإعجاز العلمي. يقول حاج حمد: " ... تحت ضغط التحديث، وعبر (المقاربات) مع النسق الحضاري الغربي، ومناهجه المعرفية، ومنظومته الاجتماعية، ظهرت محاولات لعصرنة المفاهيم الإسلامية، بهدف اتساقها مع العقل الموضوعي، وكذلك العلمي، فتأولوا ما يردّ عن (السحر)، و(النفاثات في العقد)، و(طير أبابيل)، و(أهل الكهف)... كما تأول بعضهم النبوة بأنها ملكة إنسانية، والوحي مرحلة عليا من مراحل الإدراك، والمعجزة ليست أمراً خارقاً للطبيعة، ويمكن أن تكون رؤيا منامية، مع تفسير خلق آدم على ضوء نظرية داروين التطورية."⁷

وقد ترتب على ذلك القول المتولد عن فكر المقاربات ذهول كبير للذات الإسلامية أمام الغرب وعجزها عن الحركة إلا في الإطار الذي ترسمه الحضارة الغربية ومنجزاتها العلمية والمعرفية؛ فتكبلت أيادي المسلمين وتصوبت نظرتهم إلى الغرب وارتسم مفهوم كبير لنهضة المسلمين عنوانه جبرية معرفية ومنهجية لا تعطي للإنسان في الديار الإسلامية فرصة الانطلاق أو النظر إلى الذات إلا من منطلق المهزوم المحكوم بقدر الغرب وما ترسمه أياديه الخفية والعلمية " ... فالملاحظ أنّ المقاربات تنطلق، غالباً، من إقرار ضمنّي - ولو لم يعلن طرحه - بأنّ الثقافة الغربية، ونهايتها العلمية، هي النموذج الأقصى للحقيقة، والمعبر عنها. وتعريفها للأشياء هو المنطقي والصحيح، وتالياً كلّ ما يلزم عن رؤيتها المعرفية وتقييمها للمعنى، من نظمٍ حياتية هي الأمتل، ومن اللازم احتذاؤها."⁸

وهنا تتبدى النتيجة الأكثر خطورة، برأي حاج حمد، وهي أن هذه الذات تبدأ في صياغة نفسها وفق الغربي ومعاييره في التقدم وهو ما يضطرها إلى التأويل والعسف فيه؛

⁶ / محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة: العالمية الإسلامية الثانية، ط1، بيروت، دار الهادي، 2004، ج1، ص149

⁷ / المصدر نفسه، ج1، ص111.

⁸ / الحاج ذواق، المنهج وأزمة التلفيق. <http://www.mominoun.com/articles/>

حتى إن فهم القرآن وتفسيره ينبغي أن يوافق ما ينتجه الغرب وتظهر صوابية الدين العقيدة الإسلامية من خلال ما يكتشفه الغرب وما يبتدعه من علوم ومنجزات؛ فصوابية العقيدة الإسلامية وحقانيتها يتم ختمه بالعلوم التي تم اكتشافها في الغرب " ... فنُقاس الذات بالآخر، لا على أنه هامش؛ بل مركز تنتج الذات من خلاله، وتعاد صياغتها وفق قوالبه، وأدواته، وقيمه، فتهدر المقاربة خصوصية الذات، وتضطرّها إلى التأويل المضاعف لتتوافق ومقاييس الآخر التقويمية والتصديقية، فنُحجب فُرادة الذات، وكذا الآخر، وتُكسف كلّ إمكانيّة لتحقيق التحوّل".⁹ وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى المقاربة الدائمة، التي توقع في دوامة الاستنساخ، والاجترار، والمحاكاة الأبدية، حتى تذهل عن الذات.¹⁰ وهو ما ينسحب تلقائياً على كل مجالات حياة الإنسان فقد " ... فرضت علينا أوروبا أن نزرع ما تريده، وأن نكيّف مصير حاصلاتنا الطبيعية والزراعية على ضوء أغراضها الصناعية، وأن نكيّف حياتنا على استهلاك منتجاتها، وأن نبني نُظْمنا الدستورية، والسياسية، والاقتصادية، وفقاً لمصالحها، فالعالم كلّهُ يجب أن يتحوّل إلى صور أخرى للمركز المهيمن، وبطريقة إرادية منظّمة يضمن بها المركز المهيمن عالمياً سيطرته على الهوامش".¹¹

وإذا كانت المقاربة تتجه، كما سبقت الإشارة إليه، إلى نوع من التجديد والتفاعل مع المعطى الحضاري الغربي " ... فإنّ المقارنة تتّجه إلى (المفاضلة) بين الطروحات الإسلامية بمنطق (الأصالة) والطروحات الغربية".¹²

وهذا المنهج الذي لا يختلف عن المقاربة من حيث كونه سعي إلى إدراك الذات من خلال الآخر حتى وإن بدا في ظاهره محاولة رفض للنموذج الغربي؛ " ... فمن الوجهة المنهجية المتينة، فإنّ فكر المقارنة (المفاضلة) يتظاهر برفض الأسلوب الغربي، لكنّه، في التحليل العميق، يدرك الذات، أيضاً، بأساليب الآخر، فقد عمد إلى تنظيم تفكيره، وإثارة قضاياها، واعتماد مناهجه، تبعاً لما عند الآخر، ثم يهرع للبحث، كما هو موجود عنده، ليقول إنّه يملكه، وبطريقة أفضل وأمثل، وفي ظنّ التحليل أنّه ليس من أنموذج الإعجاز العلمي ومدرسته، أفضل معيّر عن هذا التوجه، ومآلاته واحدة، التلفيق، وعكس اتجاه المنهج، وإعلاء الآخر معرفياً، وكبت المقدرة المنهجية البديلة، التي يمكن وجودها في خضمّ الإرث الثقافي الهائل الموجود، في غير عزلة ولا استعلاء".¹³ فالإعجاز العلمي هو أفضل مظهر معبر عن فكر المقارنات؛ فهو ينتظر الكشوفات العلمية الحاصلة في الغرب ليبدأ رحلة البحث عما يدلّ على تماهياها مع النصّ القرآني عن طريق التأويل والتلفيق ليخرج بما مؤداه أن النصّ كان سابقاً وأن القرآن الكريم يقدم للمسلمين وللإنسانية معرفة يتأخر الإنسان في

⁹ / المرجع نفسه

¹⁰ / أنظر المرجع نفسه.

¹¹ / محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية: أسلمة العلوم الطبيعية والإنسانية، ط1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الحديث الحديث، 2003، ص 43.

¹² / محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الثانية، ج1، ص149

¹³ / الحاج دواق، المنهج وأزمة التلفيق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، مرجع سابق.

كشفتها، ومن ثمة إثبات تعالي الإسلام ومصادره وصوابيتها وتقدمها على الفكر الغربي؛ وهو بذلك يثبت إعلاء الآخر معرفياً ويسهم بشكل كبير في شل القدرة الإبداعية للكشف عن منهج ذاتي لفهم النص القرآني.

وهكذا فإن "... فشل فكر (المقاربات)، الذي أراد أن يردم الهوة بين المسلمين والحضارة الغربية، وكذلك فشل فكر (المقارنات)، الذي أراد توسيع الهوة، وتزايد تأثير الغرب في الواقع الإسلامي، كل ذلك أوجد حالة من القلق الفكري... ضمن حالة (دفاعية) قائمة على منطق العجز الحضاري من ناحية، وحالة (سلبية) مصدرها خوف الاحتواء من ناحية ثانية"¹⁴ وهو ما يستوجب، برأي حاج حمد البحث عن منهج آخر يتجاوز منطق التلفيق نحو تحقيق الاستيعاب والتجاوز.

وبنفس المنهج والفكر (أي المقاربة والمقارنة) في التفسير العلمي الذي يقول عنه حاج حمد أنه يختلق لكل اكتشاف في العلم آية، يلفق تأويلها لتوافق معنى الاكتشاف، ويتعسف في ذلك بشكل فاضح لذوي الألباب؛ نحا الفكر الإسلامي إلى ما أطلق عليه أسلمة العلوم؛ حيث أفضى ذلك الضغط إلى انحسار هيمنة القرآن الكريم وظهورها فقط في الحدود التي تسمح بها الاكتشافات العلمية الغربية، وكانت نظرية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وأسلمة المعرفة من بين أكثر الاتجاهات التي تُظهر وضع الفكر الإسلامي في علاقته بالقرآن الكريم؛ بحيث باتت العلاقة بالقرآن أو بالإسلام لا تذهب إلى العودة إلى القرآن لكشف إمكاناته الداخلية في إحداث التغيير وبناء الوعي بقدر ما باتت تكفي بأن تحوم على تخومه من دون أن يكون للعقل المسلم القدرة على التوغل بالداخل؛ وذلك عن طريق إضافة لفظة إسلامية للمباحث حتى تتحقق الأسلمة. يقول حاج حمد في الموضوع: "... فأسلمة العلوم ليست مجرد (إضافة) عبارات دينية إلى مباحث علم النفس والاجتماع أو الأناسة، وغيرها بأن نستمد آيات قرآنية ملائمة لموضوعات العلم المقصود أسلمته، وحتى الذين فهموا الأسلمة بهذا المعنى إنما جعلوا أنفسهم هدفاً لسخرية الآخرين فحق عليهم القول بأنهم يحاولون احتواء الحضارة العالمية الزاحفة احتواءً سلبياً من موقع الدفاع العاجز من بعد فشل فكر المقارنات والمقاربات. فالأسلمة ليست إضافة وإنما "إعادة صياغة منهجية ومعرفية" للعلوم وقوانينها، فأي محاولة لأسلمة هذه العلوم لا تستند إلى ضابط منهجي كلي ومعرفي بذات الوقت لن تؤدي إلا إلى تشويه الهدف من الأسلمة".¹⁵

إن ما سبق بيانه يظهر أن فكر المقاربات والمقارنات هو تعبير عن قابلية للاستعمار لا تزال تتحكم في العقل الإسلامي وتمنعه من التحرر في اتجاه الإبداع والبحث عن الذات لا من خلال الآخر بل من خلال الذات نفسها ومصادرها المتمثلة خاصة في القرآن الكريم. كما

¹⁴ / محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، مصدر سابق، ص 32.

¹⁵ / محمد أبو القاسم حاج حمد، ما هي الضرورة الفكرية والتاريخية لأسلمة المعرفة؟ وماذا نعني بمفهوم الأسلمة

معرفياً ومنهجياً، http://uofislam.net/uofislam/view.php?type=c_book&id=1930

يظهر في الآن نفسه أن موضوع الإعجاز العلمي أسهم بصورة كبيرة في شل المقدرّة الذاتية وتثبيت منطق الآخر وفكره ومفاهيمه الفلسفية، وأن حاج حمد تمكن من زحزحة أفكار تعد، اليوم، عند قطاع واسع من الأساسيات الناظمة للفكر الإسلامي والخادمة للعقيدة الإسلامية، كما تمكنت أفكاره من جسر العلاقة بين العقل الإسلامي والقرآن الكريم الذي لا يزال يكشف مقدرّة القرآن الكريم من خلال المنجز الغربي بالمقاربة أحياناً وبالمقارنة أخرى، وهو ما سنعرض له في النقطة التالية.

-/ الإعجاز العلمي = تجاوز لإمكانات النص القرآني المعرفية والمنهجية:

فالقرآن الكريم، بحسب حاج حمد، يرسم للقارئ والمتلقي منهجية معرفية واضحة المعالم تقدم للفكر الإسلامي والإنساني معرفة جادة وموضوعية تعتمد على الجمع بين القراءتين، والمقصود بها قراءة القرآن وقراءة الواقع. وتراعي جدلية الإنسان والطبيعة والغيب؛ أي أنها لا تسقط البعد الغيبي في التحليل والاستنباط والفهم والتفسير على خلاف الفكر الغربي المادي الوضعي الذي ظهر تحت ضغط الفكر اللاهوتي الميتافيزيقي الذي أعيا الإنسان واستبعد إمكاناته العقلية، ولا توغل في استبعاد البعد الواقعي المادي كما هو الحال في الفكر الإحيائي اللاهوتي.

والجمع بين القراءتين في فكر حاج حمد هو "... أداة معرفية تعتمد قراءة أولى بالله وبالوحي الإلهي بصفة الله خالقاً: ﴿أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وقراءة ثانية موضوعية بمعية الله وبالقلم ﴿أَفَرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فالقراءة الأولى كونية تستمد من الوحي الغيبي عبر القرآن، والقراءة الثانية موضوعية، حيث يهيمن القرآن بالرؤية الكونية للقراءة الأولى على شروط الوعي الإنساني في الواقع الموضوعي، (ليستوعبها) في إطارها العلمي النقدي التحليلي (ويتجاوزها) باتجاه كوني مستمد من الوحي الإلهي القرآني. فالقراءتان ليستا متقابلتين، قراءة في القرآن تقابلها قراءة في الكون، وإنما هي قراءة بالقرآن تهيمن على قراءة الكون المتحرك بشروطه الموضوعية.¹⁶

يشرح حاج حمد هذا المنهج الذي يقول "... إننا (نبتعثه) ولا نخترعه بحكم أن أصوله موجودة في القرآن.¹⁷ بالقول: "... ومدخل القراءة الأولى ليس مجرد الرؤية في ظواهر المخلوقات أو آيات الكون المتحرك لنستدل بها على وجود الخالق وأسمائه الحسنى مدبراً وخالقاً ومبدعاً ليتحقق لنا الإيمان به[...]. فخاصية القراءة الأولى قراءة في "الإرادة الإلهية" المتبدية في ظواهر الخلق والحركة. أما القراءة الثانية، فهي قراءة في (ظواهر الخلق والحركة) نفسها، حيث نتعرف على قوانينها وتشبيها ونسيطر عليها؛ فالقراءة الأولى قراءة في عالم (الإرادة الإلهية) والقراءة الثانية في عالم (المشيئة الإلهية) فالجمع بين القراءتين

¹⁶ / محمد أبو القاسم حاج حمد، إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية، مؤمنون بلا حدود للدراسات

والأبحاث، <http://www.mominoun.com/articles/>

¹⁷ / المصدر نفسه.

ليس كما ذهب إليه البعض قراءة في كتابين: الأول كتاب القراءة والوحي، والثاني كتاب الكون المتحرك؛ بحيث تقضي قراءة القرآن إلى الكليات وتقضي قراءة الكون المتحرك إلى التفاصيل، ثم تقضي بنا القراءتان إلى الإيمان. ففي هذا القول تبسيط لحقيقة هذا المنهج، وتضييع له في الوقت ذاته.¹⁸

ويزيد " ... فالإنسان بالقراءة الثانية، يتعرف على الظواهر الطبيعية ويقرأ قوانينها ويتعرف على التاريخ والتوزيعات الجغرافية والبشرية وكافة أنواع العلوم، مثله في ذلك مثل أي إنسان في كل مكان في العالم وفي أية مدرسة أو جامعة. أما القراءة الأولى، فإنها ليست معنية بذلك ولا تبحث في القرآن عن دالة أو دلالات لهذه الظواهر في ما يسمونه التفسير العلمي للقرآن، وإنما تبحث القراءة الأولى في أمر آخر هو (الإرادة الإلهية المرتبطة بالحكمة) في كل ذلك ومن كل ذلك والمؤشرات الدالة على ما يتجاوز قدرات العلم البشري، كمؤشرات وليس كمعرفة.¹⁹ أي أن ما يعرض له من تفسيرات لألفاظ أو تعبيرات وردت في القرآن بلغة علمية واستنباط فوائد علمية طبية أو علمية لا يعني به تفسيراً علمياً، كما يذهب إليه أصحاب التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي، إنما هو مؤشرات للتدليل على صفة الخلق اللامتناهي التي تمدنا بها القراءة الأولى؛ حيث يقول: " ... فما جئنا به في سورة الرعد أو سورة فاطر أو عندما يحدثنا القرآن عن العسل أو اللبن أو النفس، إنما هي (مؤشرات) للدلالة على اللامتناهيات الخلقية، وليس مساقات تحصيل علمي؛ فلتحصيل العلمي شروطه الموضوعية العلمية، فلا نكون كمن يسأل الرسول(ص) عن الأهلة فذاك دخول للبيوت من غير أبوابها."²⁰

ولئن كانت بعض القراءات تذهب إلى أن هذا المنهج في فكر حاج حمد هو العلامة المنهجية المميزة للعالمية الثانية؛ التي تعني " ... إعادة اكتشاف منهجية القرآن المعرفية القائمة على الدمج بين القراءتين : قراءة الوحي وقراءة الكون [من أجل الخروج] من الأزمة التي تمر بها الحضارة الغربية بسبب الفكر الوضعي الذي يسقط قراءة الوحي ويتبنى قراءة أحادية مادية قد قاد البشرية إلى طريق مسدود لا سبيل للخروج منه إلا باتباع منهجية الجمع بين القراءتين ودمجهما في قراءة واحدة يتوازن فيها فهم الطبيعة والغيب في تكامل يرد للمعرفة شموليتها التي تعبر عن حقيقة الكائن الإنساني الذي يجمع بين الطبيعة والغيب ويعبر عن جدلية الغيب والطبيعة في وعيه الشامل بحقائق الأشياء من حوله."²¹ فإنها، بالدرجة الأولى، تعني إعادة اكتشاف المنهج الذي يفصح عن إطلاقية القرآن الكريم وهيمنته كونه معادلاً موضوعياً للكون؛ أي أن القرآن هو كتاب يسع الكون في ما يحويه من موجودات وعوالم وأكوان لا نهائية، وهو ليس نصوصاً متناهية في مقابل وقائع لا متناهية في كون لا

18 / المصدر نفسه.

19 / المصدر نفسه.

20 / المصدر السابق

21 / إبراهيم محمد زين، ضمن ندوة: عن المفكر محمد أبو القاسم حاج حمد، الخرطوم، 2007/05/20

متناه كما يذهب إليه الأصوليون. وهو يهيمن على العلم الإنساني مهما بلغ وتوسع وعلا. "... فالقرآن حطّم في معرض إظهاره لأزلية القدرة الإلهية فرضيات السببية الجامدة ونتائجها الوضعية، فأكد على لانهايات الناتج في الخلق مهما كانت محددات العناصر المركبة له: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاجِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)".²² ... فهو كتاب (متعالٍ) بمعنى مطلق تعطي نصوصه أو آياته الكونية حتى بما فيها من ملائكة وجن متاحات وعي لامتناه في كون لا متناه، فالخلق في القرآن يتجاوز خصائص المادة وتفاعلاتها المنضبطة إلى تفعيلها عبر حركة كونية لا متناهية".²³

فمنهج الدمج بين القراءتين يعيدنا إلى كشف لا نهائية الخلق من أجل فهم الكون والتعامل معه على هذا الأساس؛ لأن إطلاقية الكتاب وهيمنته تقسح المجال لفهم الكون وسبر أغواره واقتحام مجالاته في كل الصعد؛ بأن يكون العقل الإسلامي مشاركا في الصناعة والإنتاج وليس عالة ينتظر الكشوفات العلمية لبحث لها عن دليل في القرآن يضطر إلى التعسف في تأويله؛ فالقرآن منهج رؤية كونية وليس مختبر علوم تطبيقية، وهو ليس كتابا مدرسيا في الأهله، وتكون الجنين في رحم أمه.

وهذا يعني أن منهج الجمع بين القراءتين يفصح عن إمكانيات القرآن المعرفية والمنهجية بعيدا عن محاولات التوفيق والتلفيق الموسومة بالإعجاز العلمي، وهي المنهجية التي تجعل العقل المسلم يكشف إعجاز القرآن من الداخل؛ فهو كتاب لا يحتاج إلى ما يمنحه شهادات الهيمنة والإطلاق من الخارج، ولا يستجدي صوابيته وحقانيته من أي علم أو فلسفة مهما ثبتت صوابيتها وقدرتها. فالإعجاز هو في كشف المنهج القرآني القائم على الدمج بين القراءتين والتحكم فيه. وهذا هو التجديد النوعي الذي يعنيه حاج حمد، والذي يستمد شروطه وعناصره وأفكاره من القرآن الكريم بوصفه الكتاب الكوني المهيمن والمرجع المطلق، ويحقق في نهاية المطاف الاستقلال الفكري والمنهجي في كشف إعجاز القرآن الكريم.

إن ما سبق بيانه يظهر أن المقاربة الموسومة بالإعجاز العلمي أهدرت إمكانيات القرآن الذاتية؛ بوصفه كتاب مهيم وكوني يتمتع بالإطلاق، وأظهرت "... أن محاولات العصرانية هذه قد اعتمدت على الجهد العقلي ضمن صيغه العلمية، أو الموضوعية؛ أي أنها قد أسقطت حالاتها الذهنية على النصّ القرآني، في حين أن المطلوب هو اكتشاف منهجية القرآن وقراءاته من داخله".²⁴ واكتفت بتسطيح معانيه عبر المقارنة والمقاربة التي لم تقدم للفكر الإسلامي شيئا بقدر ما أسهمت في بقاءه في دائرة الانتظار والاجترار؛ أي انتظار ما يكتشفه الغرب ثم اجتراره وتقديمه على أنه إعجاز وسبق للقرآن.

وهكذا فإن أقل ما يحققه القول بالإعجاز العلمي في القرآن بصورته المنتشرة في الفكر الإسلامي اليوم أمران؛ أولهما تكريس لروح الانهزام والقابلية للاستعمار عن طريق

²² / محمد ابو القاسم حاج، إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، مصدر سابق.

²³ / المصدر نفسه.

²⁴ / محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة: العالمية الإسلامية الثانية، ج1، ص111-112

منهج التلفيق القسري والمقاربة حيناً والمقارنة أحياناً أخرى. وثانيهما تجاوز للقدرة الذاتية المعرفية والمنهجية التي يستبطنها القرآن الكريم ومن ثمة افتقاد الاستقلال الفكري وتغييب آفاق النهوض والانطلاق.

خاتمة

إن خلاصة ما ننتهي إليه من خلال عرض موقف حاج حمد من مسألة الإعجاز العلمي؛ نجمله في النقاط التالية:

1/ موقف حاج حمد من الإعجاز العلمي يدخل في إطار نقده المشاريع الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي وتجاوزها ومحاولة رسم بديل حضاري للنهوض والإقلاع.

2/ يقوم نقد حاج حمد لمسألة الإعجاز العلمي على محددتين اثنتين أولهما: المحدد المنهجي (إمكانات النص القرآني) والثاني حضاري (فكر المقاربات والمقارنات)؛ فالمحدد المنهجي يكشف أن القرآن الكريم ليس مصدر نظريات وإعجاز علمي بقدر ما هو مصدر مؤشرات منهجية، وأما المحدد الحضاري فيكشف أن التفكير من داخل القرآن الكريم خطوة نحو الاستقلال الفكري.

3/ الإعجاز العلمي بنظر حاج حمد هو تكريس للمركزية الغربية في كشف مقومات النهوض في العالم العربي والإسلامي وتكريس الروح الانهزامية أمام التفوق العلمي الغربي؛ وهو لا يعدو أن يكون استيلايات معرفية، واحتواء سلبي لمنجزات الحضارة العالمية الزاحفة بقوة.

4/ لقد تمكن حاج حمد من زحزحة أفكار تعد عند قطاع واسع من المفكرين والباحثين من الأساسيات الناظمة للفكر الإسلامي والخادمة للعقيدة الإسلامية، كما تمكنت أفكاره من جسر العلاقة بين العقل الإسلامي والقرآن الكريم الذي لا يزال ينظر إلى القرآن الكريم من خلال المنجز الغربي، وتبين أن القرآن الكريم في مشروعه يستبطن منهجا معرفيا لاستيعاب المعرفة يختلف كلياً عن منهج المقاربة والمقارنة الذي اعتمده الفكر الإسلامي منذ الإرهاصات الأولى لعصر النهضة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- الكتب:

1/ حاج حمد محمد أبو القاسم ، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة: العالمية الإسلامية الثانية، ط1، ، دار الهادي، 2004، ج1.

2/ حاج حمد محمد أبو القاسم ، منهجية القرآن المعرفية: أسلمة العلوم الطبيعية والإنسانية، ط1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الحديث الحديث، 2003.

ثانياً- المجلات:

1/ حاج حمد محمد أبو القاسم، قراءة تفكيكية معاصرة في النسق التاريخي لإنتاج التراث الديني بشريا وإعادة قراءة تركيبية على ضوء المطلق القرآني والسنة النبوية النسبية الموازية، مجلة المنطلق، ع111، 123، ربيع 1995.

2/ حلي عبد الرحمن، المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية، مجلة إسلامية المعرفة العدد 35، 2004م.

ثالثاً-المواقع الإلكترونية:

إبراهيم محمد زين، ضمن ندوة: عن المفكر محمد أبو القاسم حاج حمد، الخرطوم،
<https://www.sudaress.com/sudansite/532>

الحاج نواق، المنهج وأزمة التلقيق. / <http://www.mominoun.com/articles/>

علي بن نايف الشحود، الموسوعة الشاملة، موسوعة البحوث والمقالات
<http://islamport.com/w/amm/Web/3779/12589.htm>

الإعجاز العلمي في القرآن: ما قصة هذه الفرضية وما مواقف العلماء وخبراء الدين منها؟
<https://raseef22.com/culture/2017/12/10/>

محمد أبو القاسم حاج حمد، ما هي الضرورة الفكرية والتاريخية لأسلمة المعرفة؟ وماذا نعني
بمفهوم الأسلمة معرفياً

http://uofislam.net/uofislam/view.php?type=c_book&id=1930، ومنهجياً،